أَوِّل «مع» فرويد

جان لاپلانش

١- أوِّل مع فرويد

أوِّل : إن الكلمة ليست محيِّرة ولها دورها – وهو دور أرضي أو له قدسيته في الأغلب – ويمكن ان يبدو معينا ، وجيد التعيين. فلقد أُوِّلت في كلّ العصور وفي جميع العهود الثقافية ؛ الرموزُ والخطابات الالهية ، والمؤلَّفات. والتأويل يلعب دائماً على الغموض ، أوكما يقال على «تعدّدية المعنى» في العنصر الظاهر: إما حيث تظهر الرسالة على شكل ظاهرةٍ في ظاهرها طبيعية ، او عندما تعرض في شكل حكمة مخاتلة في طبعها ، وأما عندما تكون اخيراً توراة أو قرآناً ، فان الرسالة تتخطى من حيث غناها كل جانب من جوانب النصّ المقدم ليقرأ مباشرة.

وإذ يجد التأويلُ غذاءه في غموض معطىً ما ، فإنه هو نفسه يضاعف تلك الطبيعة الغامضة : أستطيع خلال مفاوضة ما ، أقدّم فيها مساعيَّ الحميدة ، التأكيدَ على عدم تحيُّزي بتذكيركم بـِ «انني لست إلا المؤوِّل لما يريده غريمكم ب». ولكنني عندما أعرض لـ «ب» مجريات المقابلة ، فالقلق يساوره خشية ان أكون تجاوزتُ في النطق باسمه ، ثم لا يلبث أن يصرخ مغتاظاً : «هنا انت أوَّلت تفكيري».

ان تُترجِم فذلك يعني أيضاً أن تنحرف وتضيف وتعدِّل المعنى الظاهر والمباشر ولو بصورة غير محسوسة ، وهو أمر نعرفه كذلك في علم النفس المرضي : انه التأويل العظامي : وهو تأويل نظامي ومسلح بنظرة إلى العالم ؛ نظرةٍ ليست ، دون شك ، إلا نقلاً للوحدة من مكانها ونسخةً معكوسة عنها ، وهي وحدة عارضة ومهددة على مستوى «الانا» عنده ، لكنها مثلٌ في الصلابة ، وعلى هذا فإن العظامي يمثّل لنا نوعاً من الخلاصة لكلّ الطرائق المستعملة في الترميزية (L'herméneutique من تأويل للرموز والحركات وللحضور مثل الغياب ،وللنصوص المقدسة منها والدنيوية ، مما يخاطب به العظامي دوماً إن بصورة مباشرة او غير مباشرة. كما شدّد فرويد على ذلك جيداً بحق وبنفاذ[1] . ويستعيد العظامي كلَّ شيء في حديثه الذاتي. لكنه يتّبع في ذلك خطوط قوة وهمية لدلالات لا واعية ، لم تَبنْ منها إلا نقاط متقطعة من رسومها ، ويشدّد عليها من دون ما رحمة.

وفي كل ترميزية غير فرويدية ، قبْلانية أو عظامية ، قديمة أو آبائية ، أن تؤوِّل فمعنى ذلك أن تقف في موقع ما وراء المعطى ، وان تصوِّب من تلك النقطة إلى موقع في جانبه. وإنه نهج يدَّعي انه نهج معرفة، وليس يخشى أن يقارن بنهج

العلم . بل إنّ المعطى هنا يتمثل بوصفه ناقل معنى ، أو بوصفه كلاماً مطلوباً فك رموزه ، أو كتاباً مطلوباً أن يُقرأ في آن معاً وأن يترجم و يستبدل بنصّ أكثر مصداقية. وكذلك مثلما عبّر عنه فوكو (Foucault) في حديثه عن ترميز ية عصر النهضة : «لا يوجد التفسير إن لم تكن تجري ، تحت الكلام الذي يُقرأ وتُفكُّ رموزه ، سيادة نصّ أوّلي.»[٢] .

وحذارِ من الشروع من تأويلها وهي صحيحة ، فان لهذه البنية مستويين: نصّ ظاهر ونص باطن ، وهي قد أضرّ بها النقدُ الحديث. أما النصّ الظاهر والحركة والحديث اليومي أو حتى المؤلَّف. فليست بعد كلّ شيء ، إلا «طبيعة» مفتوحة لكل معنى . وليس هناك من «جذر» ( ) لراسين. إلى حدّ لا يعود معه أيّ نقد كلاسيكي ، ينوي اعادة عرضه ، إلا تشويهاً او سذاجة في افضل الاحوال . ثم أننا لو سلّمنا بانه ربما يوجد هناك معنًى في المؤلَّف بالنسبة للكاتب ، فان هذا المعنى لا يثير لدينا من الاهتمام اكثر مما يثيره أيُّ متغير أو تغير يدور حول النص ، ومثله على الأكثر مَثلُ أية وثيقة «سيكولوجية» أو «نوادر ية» . وان التأو يل أو القراءة ، ليس إلا استعادةً للشيء ، إلى عالمنا الذاتي لاعطائه نفحة من الحياة منا ، كما يفعل «المؤوِّل الكبير» بالقطعة الموسيقية التي يحصل عليها عند «دوران»[٣] .

(Deutung) : التأو يل. وعلينا من غير أن نقصد الاستسلام إلى أسرار الترميز ية، التي تستند إلى «العمق» الالماني ، لتعتبر بمثابة الحديث العلمي ما هو ليس أكثر من تأو يل اشتقاقي وفقهي لغوي ، علينا ان نبيِّن بأن للمصطلح الالماني رجعاً يختلف اختلافاً طفيفاً عن رجع المصطلح الفرنسي. فان كلمة : (Deutung) أكثر واقعية : فهي تفترض معنى يتطلب العثور عليه وليس خلقه. وذلك يعني ولا شك تسليط الضوء على نصٍّ ما ، ولكن ضمن حياته الحقيقية ، ثم قول الحق وايجاد الدلالة الملازمة (La Bedeutung). أما أن تؤوِّل ، بالنسبة إلى فرويد ، فذلك يعني أن تذهب من المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن الذي تأسس عليه ، وأن تعبر في الاتجاه المعاكس الطرق التي سبق ان افضت إلى حصول الظاهرة. وأما الاستشعار المبهم المسبق للمعنى ، والحدس ، فليس من الممكن أن يكونا أكثر من طلائع لهذا العمل على فكّ الرموز[٤] .

والواقع هو أنّ أصالة التأو يل الفرويدي جديرة بأن تستعاد وأن يؤكد عليها ، طالما أصيبت بقلة التقدير ، إنْ في انواع من الجهود النظر ية الرامية الى ادراجها في الاطار العام لنوع من الترميز ية وانْ في ممارسة لا تصمد دوماً ، حتى عند المحلِّلين النفسيين الأكثر تعصباً ، أمام اغراءات القراءة من دون اعداد.

وربما كان العارض كتاباً لنا أو نصاً ، أو أفعال شخص ما أو حديثه ، أو نصاً لملاحظة عيادية ، وربما كان ، وتلك هي صورته النموذجية ، رواية لحلم ، فنحن هنا ازاء معطىً يتمثل في نوع من المعنى و يتجه للاكتفاء بنفسه – دالاً ومدلولاً – : الاحلام تروي فتضحك أو ترعب فإن نفحتها الشاعر ية معترفٌ بها بصورة كلية . فهي بالتالي نصٌّ تمكن قراءته ، بل ويمكن فيما يبدو، تلخيصه وعرضه بعد تناوله من الآخرين.

وغالبا ما يقال ،وأحياناً يقول فرويد نفسه ، انّ التحليل النفسي قد كشف وجود معنىً خبيء في الأحلام و يضاف إلى ذلك ، بالاستناد إلى التصوير السريع المتمثّل من «التحديد التضافري» (Surdétermination) بانه

توجد تعددية في المعاني المحتملة ،التي ربما كانت جميعها سائغة ،وبأن لكل منها مستواه من «العمق» قلّ أو كثُر.ولكننا بالاستناد إلى هذا النمط من الصياغة وحده، لا نرى إلا بشكل سيء، ما يميز فرويد عن كلّ التيار المعاصر الرافض للفكرة القائلة بوجود تأويل سائغ لكل نتاج ذي دلالة.

والمحللون النفسانيون أنفسهم يستسلمون، أكثر من مرة، إلى اختصار كهذا، في نظريتهم وفي ممارستهم: تسلُّلٌ إلى اجتماع، يعرض فيه واحد منهم لزملائه حالة عيادية. وأعر سمعك إلى النقاش. انك ستقف بسهولة على الواقعة الأكثر حكمة وتحفظاً لدى المستمعين: فالمتكلم يخاطر في عرض تأويل أكثر عمقاً واكتمالاً للمادة التي سبق أن عرضت، مستخدماً، وبحذر دون شك، سياق «التداعيات» التي رواها المحاضر وجزءاً منها... الخ. وليس الأصغر سناً دائماً، بل إن الأكثر جنوناً، سيمضي إلى حدّ يترجم فيه دون توقف، كما لو أنه كتاب مفتوح، حلماً كهذا لم يُروَ إلا عرضاً ودون أيّ تعليق. فضلاً عن هذا. فربما كان الأكثر جنونا هو المحاضر نفسه، ذلك أنه لا يتمتع بالضرورة بامتياز في موقعه، ولا شيء يبيح له الاضمار بأن هكذا نبذة من «الظاهر» تحمل معنىً لا واعياً واضحاً بما يكفي لأن يقرّه فيه مستمعوه، أو يقرّه هو نفسه دون جهد(٥).

فما هو اذن الأمر المميز للتأويل التحليليِّ النفسي؟ ان ما يميزه ليس فقط اليقين الموجود في السلوك الذي يواجهه، والذي له نصّان على الأقل: نصٌّ هو ذلك الذي يعطيه الفرد، أو يستسلم إليه في مباشرية وعيه، ونصٌّ آخر، هو نوع من حديث لا واعٍ يدعى «هوامات الرغبة». انه المنهج الضروري للانتقال من نصٍ إلى آخر. أما الطابع الذي نعطيه لهذا المنهج فهو طابع التحليل، لكنه بمعنى من المعاني وفي آن معاً، متسم بالغلو ومنحرف بالقياس إلى ما تفهمه الذهنية الديكارتية من هذا. فان «قواعد المنهج» تتطلّب تفكيكاً للشيء إلى اجزاء طبيعية بسيطة يجاور بعضها البعض الآخر، بحيث أن مسيرة اعادة البناء، مسيرة «التركيب»، تمضي، كأنما من تلقاء ذاتها، إلى حدود تقطيع تنطبق بصورة ملائمة مع خطوط انغلاق الموضوع. أما في التحليل النفسي، فالأمر يسير بصورة مغايرة جداً. فان قاعدتيْ الحوار، قاعدة التداعيات الحرة بالنسبة للمحلَّل، وقاعدة الاصغاء المماثل للتداعيات في تموّجه بالنسبة للمحلِّل، تشكلان كلاً منهجياً واحداً. أما التأكيد فينصَبُّ من حيث الجوهر على ذلك المبدأ الداعي إلى معالجة كل عناصر الحديث معالجة متساوية. فان كلّ التفاصيل في حلم ما، على سبيل المثال، ينبغي ان تؤخذ، دون تفضيل أي منها، كما لو أنها نقطة الانطلاق المحتملة في سلسلة مترابطة. لكنّ مصطلح «العنصر» نفسه لا ينبغي ان يثير الالتباس: فلا توجد في حلم، اجزاء خارج الاجزاء partes extra partes، قابلة لأن تعين لها حدود ببساطة.فالعناصر ليست ذراتٍ ذات دلالة، بل وحتى ليست ذرات «مميزة» بالمعنى الذي تتصوره الألسنية بالنسبة للحديث ذي الالفاظ. وما ندعوه عنصراً من عناصر قصة، هو بحصر المعنى أي شيء من هذه القصة، تفصيل من تفاصيلها أو مشهد من مشاهدها، أو الحلم برمته. وليست توجد بين الجزء والكلّ أية علاقة من علاقات التبعية: الجزء يستطيع القيام مقام الكلّ. كما يمكن للكل أن تكون قيمته بمثابة قيمة عنصر من عناصرَ أخرى. إنّ مادعاه فرويد نقلاً للكثافة (Intensité) النفسية، أو دعاه أيضاً قلباً لكلّ القيم النفسية في الحلم، ليس شيئاً آخر غير التبرير النظري

لهذه القاعدة القائلة بتفكك الوحدة ذات الدلالة تبعاً لكل خطوط التقسيم القابلة للتصور، ووفقاً للحدود التي، في ظاهرها، الأقل طبيعية من أية حدود كانت. أما القاعدة المشينة للحياء أو المعنى الخلقي، التي تقضي بعدم إغفال شيء خلال الجلسة، وبمعالجة كلّ فكرة بالطريقة نفسها، فهي على الأقل في مثل ذلك صدم للادراك أولـ«الأنا». اما المفارقات والمغالطات المنطقية التي تقود إليها هذه القاعدة، فلا تكرهنا على قبولها الا إعادات التحقيق والتثبت من صحة العلاج. وبذلك يمكن أن يندرج بين عناصر الحلم، ودون أن يضفي عليه أيُّ شيء قيمة متميزة، الانطباع الذي يولّده عندي هذا الحلم (حزن؟ رعب؟) أو الحكم الذي أعتقد أنني اصدرته عليه في «الدرجة الثانية». «هذا الحلم كان مموهاً» أو «بعد ذلك لم أعد أذكر شيئاً»: هاتان الجملتان يمكن أن تضعانا في الطريق، ليس على طريق طابع الحلم، وانما على طريق لـ «فكرة كامنة» من بين أفكار أخريات: فكرة أن صديقي س يحبّ ارتداء ثياب «مموهة» قليلاً، او نسيان قد حدثَ في حالة اليقظة قبل الحلم. وبالعكس، فان الغرابة التي لا تكاد تدرك في تفصيل ما، يمكن ان تدفع، كما يفعل «أس» جبري صيغة الحلم برمتها بالاشارة إلى النفي أو الى التحقير. وهكذا أيضاً. فان القصة يمكن أن تقوم مقام مضمونها، كما يقوم الدال مقام المدلول وبالعكس. وبهذا تجد الاستعارة تمام وزنها من الواقع: فان ذكرى هذا الشخص التي احتفظ بها في رأسي، هي بالضبط ذلك الشيء الذي وضعته في ذاتي، مجسداً، مناسباً أو متلفاً.

أن تؤوِّل في التحليل النفسي، فذلك يعني بادىء ذي بدء أن تفكك وأن تُبسِّط بصورة جذرية، النسق الذي يكون عليه «النص» الظاهر. وأن تتابع، انطلاقاً من ذلك، ودون أن تظلّ خطاك، السلاسل المترابطة، التي تشكل شبكة مشوشة في ظاهرها وممسوخة، وليس بينها وبين السلسلة التي عُلِّقت بها اي نسبة أو توافق. وإذا ما انتهت المعالم الأولى في مضمون كامن إلى البروز، فان ذلك لا يشبه اطلاقاً نوعاً من الترجمة بالمعنى المتداول للكلمة، وليس هو شبيه بنوع من انواع التحويل حتى لو بلغ هذا ايضاً في التعقيد في قانونه مبلغ الصورة غير الشبيهة بالشيء (المعطاة في المرايا المحدَّبة وغيرها (Anamorphose). ووافق نقطة بين النص الظاهر والمضمون الكامن.

أن تؤوِّل فذلك يعني أن تتعلَّق دون تراخ بأهداب الحديث، مرتضياً بألاّ يمتد نظرك إلى ما هو أبعد من خطوتك التالية. لا يحركك إلا يقينك بأن آثار قنَّاص الطريدة ستنتهي إلى البروز، بواسطة اعادة التحقق من تشابكاتها التي لا تحصى، عند العقد ذات الدلالة التي تحدد معالم نوع من مسارات متتالية لا واعية[٦].

وإنه، وإن توجبت احيانا محاولة الاعراب عن هذه المتتالية في حديث، وهي بعدُ لم تكد تؤوَّل. فان فرويد قد فضَّل في مقالة متأخرة، إدخال مصطلح جديد هو مصطلح «البناء»، وذلك بغية الاحتفاظ بمصطلح التأويل لذلك التوجه من المفرد إلى الفرد الذي هو جوهر النهج التحليلي: «إن مصطلح التأويل يتعلق بالطريقة التي نهتم بها بعنصر خاص من المادة، بفكرة تأتي بغتة، بفعل خائب.... لكنه بالامكان الكلام عن البناء عندما يقدِّم للشخص الخاضع للتحليل قطعة من «فجرتاريخه» المنسي[٧].

وسوف يكون البناءُ هذا النهج القريب من التأويل والذي أضحى مميزاً عنه، عملية متصلة في متتالية من هوامات

عدد ما من عناصر ذات دلالة معلّقة بها الرغبة. أما بالنسبة لـ «عملية اعادة البناء» هذه، هذا «التركيب» الذي اشتكي اكثر من مرة من أنه لم ينقل إلى المريض الذي زعزعه التحليل، حتى في اسباب وجوده، فان فرويد تنحّى باستمرار. وهنا يقوم الخصم، يونغ ومدرسه زيوريخ، بالهجمة الوحيدة نفسها على جبهة مزدوجة. فهو طوراً يطالب التحليل، بصراحة، بالحلول محلّ ما قد دمَّره تأويله «المخفض»، طارحاً على المصاب بالعصاب مُثلا من طبيعة «اخلاقية» ودينية اقامة: بناء جديد متدين..). وطوراً يقدم، بشكل مختال، موعظته الدينية على أنها تأويل، إن لم تكن التأويل الوحيد الصحيح. وتلك هي الطريق المدعوة بـ «التأويل الباطني»، وذلك بربطه مجدداً بالتراث اللاهوتي الذي يتوخي ان نرتفع من المعنى الحرفي للنصوص المقدسة إلى معناها «الروحي». وتصبح البنى الهوامية المكتشفة بواسطة التحليل الفرويدي هي نفسها، «رموزاً» تتطلب فكّاً: «فليست لعقدة أوديب إلا قيمة «رمزية» فالأم تعني شخصاً صعب الانقياد يُتوجَّب التخلي عنه لصالح التقدم الثقافي، والأب الذي يقتل في اسطورة اوديب هو الأب «الداخلي» الذي يتوجب على المرء التحرر منه ليصبح مستقلا»[٨]. وغنيٌّ عن البيان أن هذا القلب الدعيّ للمنظور الفرويدي يبخس منهج التحليل النفسي قيمته فيما عنده من ثورية وعلمية خالصتين، ليعدو إلى الحلّ الصوفي للرموز في «معالجة الشارات». وعلينا، من غير أن نقصد البحث في الفعالية (لمن ولماذا؟) التي تتعلق بالمداواة «اليونغية»، أن نتأكد من أن التأويل الذي أريد لهذه المداواة أن تقوم عليه لا يمكن في النهاية إلا في التقاط رغبة الفرد، واسترجاع حديثه خلال حديثٍ آخر هو حديث طبيب النفس.

٢ – فلنؤوِّل فرويد؟

قراءة– تأويل. بين هذين المصطلحين تحتل موقعها مناقشة نظرية حول ما يدعى في الصحافة «العودة إلى فرويد». وهما نفساهما مصطلحان مطلوبان للتأويل... لأن من يدَّعي بأنه «قارىء فرويد» يُعظِّم صفة القارىء هذه مضفياً عليها العلَمية، فهو يعتبر قراءته بمثابة قراءة فذة ونبوية. مثلما أن قارئاً آخر يريد التأكيد على امكانية الحفاظ على وقت قراءة فرويد ووقت التأويل مفصولين، يهمل في منهجيته الخاصة به ما بإمكاننا ان نتعلمه من فرويد في الواحد وفي الآخر[٩] في زمن القراءة وزمن التأويل.

وهنا يكمن الضعف، فانه ليس المطلوب، في الواقع، ان يقرأ فرويد أو يعرض أو يؤوِّل في نطاق متعلق بحقّ اللا– محلل[١٠]، بل ان ما يدعى **قراءة** وما يدعى **تأويل– قراءة** يحصلان عندما يتعلق الأمر باعطاء تقدير؟ ولقد صاغ م. **تور** الاعتراض الحاسم التالي: أليست أية قراءة لكاتب كبير هي تأويل بالضرورة: «وليست اطلاقاً المسألة الحقيقية في القراءة أن يستبعد أي تأويل. وانما هي في بناء تأويل منها منطبق على النص بدقة.». ثم بيَّن أن قراءة لا تتطلب أن تكون إلا قراءة وعرضا أميناً رامياً يحلّ، من الناحية التربوية، محل النصّ نفسه، هي بعد ذلك تأويل، وأنما هي تأويل مشوب بالخطأ. ولندخل الى هذا المجال مستندين مأخوذين من فرويد، مما يفعل ومما يقول.

مما يعقل، ذلك انه يحصل أن يكون هو نفسه قارئاً لفرويد، وأن يعرض تفكيره تركيبياً، إما في صورة عرض دغماطيقي، وإما في صورة تأريخ لتطوير أفكاره، وإن نصوصاً كتلك النصوص، مهما كانت أخَّاذة من وجوه عديدة،

فهي تحمل قسطها من مسؤولية تقهقر وتسطيح المذهب ومن التواء تاريخه الحقيقي وانكاره. بيد أن فرويد ليس من اولئك الكتّاب الذين يعيشون من استثمار مؤلّف من مؤلفاتهم السابقة. وتشهد بذلك العناية التي بذلها في تأليف كتابه: موجز التحليل النفسي، حتى في السنوات الأخيرة من حياته، انما هو ولا ريب، بسبب من طبيعة التطور النسقي والتركيبي الذي يبتغي ان يكون انعكاساً أميناً للمؤلف، ولا يكون غير ذلك، يفتح الحقل على أواليات ذهنية تقع على صعيد آخر، وأواليات أكثر «سطحية» من تلك القائمة طرفاً في اكتشاف وعرض المحاولة الأولية

إن مفهوم «الاعداد الثانوي» الذي صاغه فرويد بخصوص الحلم، ممكن الاستعمال مباشرة في ميادين كثيرة أخرى. هذا «الأخذ بعين الاعتبار للمعقولية» له غاية هي أن يجعل مقبولاً، في نظر المتطلبات الخلقية والمنطقية وحتى الجمالية، مضموناً ما زال يُفصِح، وإن طريقة مشوهة، عن شيء ما من الحيوة ومن اللا انحباسية في الرغبة اللاواعية وهي، في المؤلَف وبطريقة نموذجية في الحلم الذي تصوغ فيه السيناريو وتفرضه – كأنه «مُلَبَّسٌ» – تلاقي مدموغة، بطريقة قد تقل أو تكثر، في كلّ نتاج واع. و «إن فينا وظيفة ذهنية ملازمة لنا، تتطلب من كلّ الأشياء التي تمثل أمام ادراكنا وأمام فكرنا، توحيداً وتماسكاً ومعقولية، وهي لا تخشى من اقامة علاقات غير صحيحة عندما تعجز نتيجة لبعض الظروف عن التقاط العلاقات الصحيحة. ونحن نعرف بعضاً من الأنسقة ليست خصائص للحلم فحسب، وانما هي من خصائص حالات الخواف المرضية (Les pholies) والفكرة الهجاسية وأشكال الهذيان المختلفة. وفي الاصابات الهذيانية «العظامية» يبدو النسق في أكثر حالاته تجلياً، فهو يسيطر على اللوحة المرضية، لكنه لا ينبغي أن يهمل مطلقاً في الاشكال الأخرى من الامراض النفسية. ويمكن أن يبيّن، في جميع الحالات، حصول تبدل في العنصر النفسي تبعاً لغاية جديدة، وهو تبدلٌ يكون في معظم الاحيان قسرياً بصورة اساسية، رغم انه ممكن فهمه إن نظرنا إليه من وجهة نظر النسق»[١١]

أن تقرأ وأن تعرض فرويد، وعمل يصبح في رأي ب. ريكور تقديم لـ «أعادة بناء معمارية للمؤلَف» و «انتاج لماثل له، أي لشيء ينوب عنه، بالمعنى الحرفي للكلمة، مقدما تنسيق المؤلف نفسه»[١٢]، لكن إذا كانت النتائج الأكثرمباشرة في الاعداد الثانوي، تتبدّى في ما يحتمله مؤلَّفٌ في أجلى ما فيه من ظاهر ومن حرص على المعقولية إن لم نقل على المعنى المشترك، كما تتبدّى في اعطاء شكل وهيئة معمارية، فكيف تستطيع قراءة «صافية» لفرويد، على افتراض انها ممكنة، ان تفعل شيئاً غير تعزيز نتائج التصفية والرقابة والتطمية وهي نتائج أنوية (moïque) وحتى فوق أنوية (surmoïque) كما قد سبق التمهيد لها في القراءة التي لا محيص عنها، قراءة فرويد بواسذة فرويد؟

ومن الـ «قراءة» إلى «التأويل» نمضي مع ب. ريكورمن نقيض إلى آخر؛ من الموضوعية المحضة والمستحيلة إلى ذلك «الاسترجاع في حديث آخر» الذي ان لم يطلب له المؤلف حقوق الذاتية الفردية، فهو يُطلب له على الأقل حقوق نوع من ذاتية فلسفية: «أنا لا أقول مطلقاً أن فلسفة وحيدة لها القدرة على اعطاء بنية استقبال، علاقة القوة والمعنى فيها علاقة ممكنة الجلاء: فأنا أعتقد بإمكان القول بقراءة لفرويد، وانما يمكن القول بتأويل فلسفي له. وهذا الذي اقترحه

متعلق بالفلسفة الأستبطانية»[١٣]. وان الصراحة التي يحدد بها **ب. ريكور** التأويل عنده بوصفه خارجيا، وبأنه استصواب لفكرة، أو بأنه ايضاً «استرجاع استبطاني»، لا تستطيع أن تعفيه، مع ذلك من الاجابة على هذا السؤال: ما الذي سيصير إليه، ضمن هذه النظرة إلى التأويل، الاكتشاف الفرويدي للتأويل؟ ذلك أن فرويد كان يعتزم، بما دعاه (Deutung)، إحداث منهج اصيل قائم على أسس، ومثبت بواسطة تجربه متأنية، مؤداة بدقة. وقصارى القول إنه منهج علمي، وإلا فانه يجب ألا يكون، في أساسه، إلا نوعاً من تقمّص جديد للترميزية الخالدة. أو أنه كان يجدر به، أن يفسر لنا لمَ لا يكون شيء من هذا المنهج الفرويدي، إن لم نقل، قابلاً للاستعمال مباشرة، أو على الأقل قابلاً للنقل، عندما يريد المرء أن يكون هو نفسه مؤولاً لفرويد. وسوف لن يكفي بأن يتعرض علينا باختلاط المجالات أو المستويات: تأويل الفرد البشري من جهة، وتأويل الفكر الفرويدي من جهة أخرى. ذلك انه، أن نحن أحسنّا فهم **ب. ريكور**، فان نفس النوع من «علم اللاهوت» هو الذي يستولي على الفرد وعلى الفرويدية في «سلسلة من الصور التي يجد كلٌ منها معناه في الصور التالية»[١٤].

وفي غياب الحصول على اجابة يجب الوصول الى خلاصة: ان ما يعود إليه **ب. ريكور**. بمنهجه الخاص في التأويل، هو بالتحديد، ما كان فرويد يدحضه باستمرار، وما كان يناضل ضده في ثنايا التحريف اليونغوي: الترميزية الهرمة المستوحاة من الدين، و«استقبال» الفرد في حضن نوع من «اللاهوت» يقدّم له على انه الصورة الأعلى والأكثر صدقاً لصراعاته.

ومع مدرسة زيوريخ، يجد «التأويل الديني» نفسه أمام قياس أقرن؛ إما أن يتقلّد طبيعته في التمذهب التقي، وإما أن يتمثل تحت قناع من التأويل التحليلي- النفسي. أما عند **ب. ريكور** فان الترميزية تعرب عن نفسها صراحة بوصفها استرجاعاً لخطاب، في الغيرية المحتملة لخطاب آخر (نوع من التأويل)، دون أن تستبقي شيئا مما يرمي إليه النهج الفرويدي («الرغبات اللاواعية المعادة الى تعبيرها الأخير والأصح»)[١٥]، أو من الوسائل الدقيقة التي توفرها لبلوغ ذلك[١٦].

٣- أوّل [مع] فرويد.

وإن نحن سمينا مقاربتنا للنصّ الفرويدي «تحليلية نفسية» و«تأويلية» فليس ذلك بالمعنى الذي يفهمه واحد مثل **أرنست جونس** في ترجمته لحياة فرويد. فالمعنى ينبغي التحقّق منه باستلهام الدلالات التي اعطاها فرويد نفسه. أما المخطط الذي يقدّمه فرويد أحياناً من أجل دراسة تحليلية- نفسية للتفكير وبسيكوغرافيا للفنانين والفلاسفة.. إلخ[١٧]، فلا يمكن اعتباره الكلمة الأخيرة للتحليل النفسي حول هذه المسألة. وان فرويد الذي كان مأخوذاً بين اختزال الفكرة إلى ظروف ذاتية محض، كاشفة عن احتمال تاريخ فردي، وبمجرد النقد العقلي لهذه الفكرة، لم يجد مطلقاً غير تسوية لبقة واحدة؛ فهو يقول لنا إن التحليل النفسي يضع إصبعه على النقاط الضعيفة في نظرية كهذه، انما على النقد العقلي والنقد الداخلي الكشف عن تلك الضروب من الضعف التي أماط اللثام عنها مبدأ آخر.

وإذ يطبّق هذا المنهج على الفلاسفة، وقد طبقّه جونس على فرويد نفسه، فهو ينسى في الظاهرة، واحدة من

التقاط الجوهرية في الاكتشاف الفرويدي؛ فالعصابي في اعراض مرضه، والمفكر حتى في بعض الانحرافات في المحاكمة العقلية عنده ينبغي ان يكونا على حق من وجهة ما. فلا يمكن للبسيكوغرافيا التحليلية النفسية التي تحمل هذا المبدأ الاساسي باستمرار على محمل الجدّ، أن تفضي إلى محض احتمال أو إلى ضلال، وانما هي تطلُّ على رغبة، فيها صورٌ وأسباب ترسم جزءاً من تركيبة أكثر عمومية[١٨].

بيد أنه يبقى أن أيّ تحليل نفسي لمفكر ولمؤلَّفه، سيصطدم دوماً بالاعتراض المبدئي التالي؛ اننا لا نجد خارج العلاج شرطا غالباً لتطبيق المنهج. وحتى لو اريدت تجربة تجاوز ذلك (كما فعل فرويد من أجل الرئيس شريبر على سبيل المثال)، فانه ينبغي الاعتراف، بالنسبة إلى حالة فرويد، بأن العناصر السِّيَريّة التي في حوزتنا غير مكتملة بشكل لا يتصور، ومجزَّأة بصورة مخزية ومراقبة (وذلك قبل كل شيء بالنسبة إلى الكاتب نفسه).

إن هذا الاعتراض ذو وزن كبير، ولكنه لا يضغط بوضوح إلا على مشروع البسيكوغرافيا التحليلية عند فرويد. أما المشروع الذي نحمل هنا بعض شروط إمكاناته فهو مشروع مختلف؛ انه نقلٌ، مع اجراء التغيرات الضرورية، لمنهج فرويد في تحليل الفرد ورغبته، إلى اطار متطلّبات فكرة ما، أي إلى صعيد الاستدلال الأكثر انتماءً إلى الرغبة. وبما أننا لم نعط إلا دلالات مجتزأة فيما يخصّ منهج التأويل التحليلي النفسي في العلاج، فإننا بالمثل لا نستطيع ألا أن نحصر أنفسنا في بضع نقاط من المنهج؛

إن تفكيك الفكرة والتعبير، ووضع «عديم الدلالة» مع التصريح المبدئي المعاد تأكيده باستمراره، وكذلك الجزء مع الكل على نفس الصعيد، يشكّلان بعد الوصول بهما إلى عيادة المحلِّل النفسي، قاعدة منهجية ملائمة، لأنها تأخذ الوجه الآخر من الإعداد الثانوي ومن التمويهات اللاحقة بالإدراك، سامحة لشبكات أخرى من الدلالات بالبروز، وتؤدّي هذه القاعدة التي يمكن تسميتها أيضاً بمبدأ التحليل المساواتي، الى احترام متجدِّد للحرفية. فبدلاً من أن يدعى بالضرورة إلى اهمال حرفية المحاكمة العقلية، فإنه يجب مواجهتها – بحرفية المفهوم. وقد أتاح لنا عمل قمنا به بالاشتراك مع ج. ب. **بونتاليس**[١٩]، التثبت من المدى الذي تسمح به تجزئة فكرة ما، بعيداً عن الوصول إلى مشغل غير محدد الشكل، بتوضيح دقة المسيرة الفرويدية فيما يتعلّق بخلق المفاهيم واستخدامها.

وإن تمشيط المؤلَّف في كلّ اتجاه دون اغفال شيء، ودون تفضيل مسبق لأيّ شيء، هو في نظرنا عمل قد يعادل قاعدة العلاج الاساسية. وانه يمكن العثور، عند طرح تلك القاعدة وتطبيقها، على العديد من أواليات وطرائق اللاوعي المكتشفة في التأويل التحليلي النفسي للعصاب أو للحلم، في مستوى المؤلَّف:

فان غرابة تفصيلٍ ما كما رأينا، يمكن أن تطبع أيّ حلم برمته برمز النفي. وفي تاريخ الفكر الفرويدي تتواجد هذه الطريقة الصادرة عن اللاوعي، في أكثر من مناسبة. وهكذا فإنه عندما ادخل فرويد، في عام (١٨٩٥)، مفهوميْ الطاقة المرتبطة والطاقة الحرة، اللذين سيصبحان مفهومين اساسيين في مذهبه، لم يكن يقصد الى أكثر من تبني التعارض الذي ادخله **بروير** بين نوعين من الطاقة الدماغية؛ الطاقة التوترية أو اللا إرادية والطاقة الحركية. والحال فان ههنا ثلاث نقاط ملفتة للنظر:

١ – اعتقد فرويد بأن من المفيد استعمال مصطلحات أخرى غير التي استعملها بروير.

٢ – إن المصطلحات التي يقوم باستعمالها هي، في الواقع مستقاة من فيزياء هوللتز، حيث استعملت استعمالاً كثير الدقة كان قد ألفه فرويد وبروير نفسه.

٣ – استعمال فرويد لهذه المصطلحات هو استعمال ضالٌ، حتى لا معقول إن قيس باستعمال هوللتز لها، ذلك أن الطاقة الحرة عند فرويد تتطابق بالاجمال، مع الطاقة المرتبطة عند هوللتز والعكس بالعكس. وفي رأينا، أن هناك تغييراً للمواضيع يتطلب الاعتراف به، وقلباً يتطلب التعديل؛ فإن ما يريد فرويد، بطريقة لا واعية، أن يشير إليه بالنقد، ليس إلا نظرية بروير التي سيستمر، بوضوح، في ادعاء التوافق معها.

أما النسيان، بمعنى الكبت، فاننا نعثر على مثال ضخم منه، بواسطة النظرية الفرويدية المتعلقة بتكوُّن الخصائص الجنسية أو تكون النزوة ذلك أن فرويد بعد أن وصف، بطريقة فيها غاية الدراية في كتابه «ثلاثة بحوث حول الخصائص الجنسية». ولادة الخصائص الجنسية انطلاقاً من كلّ ما في الفرد البشري من حيوية. (ولادة تؤكد عليها المصطلحات؛ الاثارة الجنسية الذاتية، الاسناد (étayage)، والانحراف المتعدد الاشكال، الخ..) ينتهي من نظريته في «الانفعال اللاواعي» في أن يُحلَّ، في الظاهر، النزوة في نظام الطبيعة وبين الأمور البيولوجية. ولا يستطيع المحلل النفسي، أمام نسيان ضخم كهذا سيستمر عند خلفاء فرويد، ان يتملص من التأويل. هذا النسيان ليس إلا فسيلة وتقمصاً ذهنياً لكبت أساسي؛ هو ذلك الذي تنتهي إليه النزوة، بتنكرها لأصوله الطفولية والمتداخلة – ذاتياً، بأن يقدّم نفسه للفرد على أنه طبيعة، مفضياً بعد تعرجات معقدة إلى نوع من الضبط شبه الغريزي، للنشاط الجنسي عند الفرد.

أما عمليات المعادلة بين الدالّ والمدلول وبين الموضوع والتعبير، وعمليات استبدال الطرف الواحد منها بالآخر، والمزج الظاهر بين صعيد الواقع والسببية وبين صعيد الاستعارة، فهي أمور تطلّب كلها تعديلاً وتحليلاً وتأويلا. وهكذا فإن قيل لنا بأن «الأنا ليست سطحاً فحسب وانما هي اسقاط لسطح»، فلا فائدة من إلغاء هذا الاختلاط المبالغ فيه بين النموذج المكاني للجهاز النفسي الذي تقع على سطحه الأنا وبين العملية الواقعية للاسقاط (بالمعنى الهندسي والعملي العصبي في آن معاً) التي تأتي لتضاف إلى هذا النموذج ببساطة واضحة جداً متأتية من المحاكمة العقلية. وينبغي التوصل إلى الادراك، بان ثمة علاقات معقدة وشبكات مشدودة بين الاستعارات التي يقدّمها بصورة واعية والاستعارات اللاواعية التي يسمح تأويل فكرة بالعثور عليها، وبين تلك الانواع من الاستعارات المتحققة (التقمصات النفسية على سبيل المثال) التي يكتشفها المحلل النفسي بوصفها أموراً ناجمة عن الكائن البشري.

وواضح كيف ان نمطاً في التأويل كهذا النمط ينبغي له ان يقع على مسافة من الظاهر، وإلى حدّ يتوقّى هذا التأويل من كل ما هو في المذهب، تنقيحاً أنوياً (moïque)، افلا يعني هذا أن هذا الاستعمال المنهجي والنقدي في نوع من بسط الدلالات في المؤلَّف ينطوي على الرفض الحاسم لكل منظور! المنظور التاريخي، أو المنظور المعماري؟ وسوف نُعذر لأننا لم نفعل هنا أكثر من مجرد إثارة هذه المسألة المعقدة.

وربما كان على مفهوم التاريخ (تاريخ فكر ما) ان يستعاد في مقاربة مستوحاة من الاكتشاف الفرويدي، على مستوى آخر؛ هو مستوى «تاريخ» أمر ما (بالمعنى الذي يتمّ الانتقال فيه من المشكلة إلى «المشكلية»). وهذا التأريخ، كلما كان أبعد من مجرد التاريخ، وكلما كان ابعد من رسم الابعاد الهندسية الذي بإمكانه انيحسب حسابه بصورة مثالية للانتقال من «حالة نسقية» إلى «حالة نسقية» أخرى[٢٠]، كلما أصبح اكثر تعقيداً، وأخذ يجري بمقتضى مستويات أخرى، لكنه بادىء ذي بدء، ومن أجل وضع مبادئه، يجدر الفحص عن الوظائف المتعدِّدة للتناقض وأن يُحلَّ ضمن دوره وضمن دلالته الغالبة إلحاح الرغبة المتكررة.

المعماري؟ ان هذا المصطلح ينطوي على افراط في الأفكار النسقية، والتناسق الجميل والانسجام، مما يحدو بالمحلل ألا ينظر إليه بنوع من الارتياب. أما جان **بويّون**، فيفضّل عليه مصطلح «البنية» الذي قدَّم فيه، خارجاً عن الافتتان بالشيء الدارج، بحثاً في التعريف مقنعاً بشكلٍ فريد[٢١]. ويضيف التحليل النفسي الفرويدي إلى هذا التعريف، نبرةً كثيرة الخصوصية مرتبطةً بمنهجه؛ فالبنية لا يمكن جعلها مثيلة للشكل أو للنسق، ضمن النطاق الذي تتضَّمن فيه الأخيرتان، بشكل خاص، توازناً بين الاجزاء يمكن تقدير وزنه التشبيهي تبعاً لمدى الاهمية شبه- المحجامية التي يتَّخذها ضمن المجموع. وإن احدى نتائج التأويل الفرويدي هي، كما رأينا، تخفيض قيمة بواعث التناسق وتبعية الجزء إلى الكل، إلخ.. بتبيانه، على سبيل المثال، كيف ان تفصيلا لا شأن له في النسق الظاهر يمكن أن يشكِّل، على صعيد اللاوعي، الدِّسار الذي يخلق الثقل الموازن بين الكتل «الطاقية» الخطيرة الشأن، إن البنية عند فرويد (أي في مؤلَّفه وفي موضوعه في آن معاً) هي توازن ثنائي أو ثلاثي بين عناصر، يمكن ان توجد خلال تأريخ وقد تغير موضعها كلياً، وقلّدت وظيفة مغايرة تماماً، هذا مع احتفاظها باسمها نفسه، ومع احتفاظها من حيث الظاهر بطبيعتها نفسها في المؤلَّف الظاهر. وكيلا نأخذ إلا مثالاً واحداً، فانه من غير الممكن العثور في خارج التشكيلات الخرقاء أحياناً عند فرويد، على معنى مبدأ اللذة، دون الأخذ في الحسبان للاضطرابات البنيوية، والتغيرات في التركيز النفسي الشبيهة بالمشكال، التي تفضي إلى هذه المفارقة الظاهرة؛ فان مبدأ اللذة الواقع في بداية المؤلَّف الفرويدي إلى جانب النزوة الجنسية، هو ملحق، في بعض الوقت، بدافع الموت، ليجد نفسه في النهاية بمثابة ضابط للأيروس، تلك القوة البنَّاءة المولدة ذات التركيب الذي يختلف تماما في نهاية المؤلَّف الفرويدي، عما وصف في عام (١٩٥٠) على انه غريزة جنسية.

وربما امكن التأريخ البنيوي للفكر الفرويدي، شرط أن يحسب الحساب دون تحفظ، ضمن نفس المنهج، للتفكير الفرويدي، وهذا يفترض كشرط مسبق، اقامة لدى مؤلَّف ما وفي متاهاته، وقبولاً صريحاً للوقت في تحليل «مخفض». وهل بالامكان أن نأخذ عليه انتهاءه إلى نظرات ثباتية نسبياً، إلى الحدّ الذي يفضي فيه عبر تغيرات في النظرية إلى إثبات ديمومة في التطلب، تلك الديمومة التابعة لاكتشاف ربما مازال عليه أن يجد شكله العلمي الملائم.

ترجمة: شبيب بيضون

الهوامش

١ – إن [العظامي الغيور] «يبدي انتباهاً فوق العادة لكل المظاهر اللاواعية الصادرة عن زوجته، ويمهر في تأويلها بدقة، ورغم أنه، والحق يقال، على صواب دوماً، فانه يستطيع ايضاً أن يدعوها إلى التحليل ليؤكد غيرته ويختصر شذوذه، في الحقيقة، في أنه يتناول لاوعي زوجته، بملاحظة مفرطة الحدّة، ويعلق على الأمر خطورة لا تنفك في ازدياد، لئلا يصل إلى الفكرة أي واحد آخر».

(Freud S. 1922. 'De quelque mécanismes névrotique dans la jalousie, la paranoïa et l'homoseseulité. Trad. in R.F.P. 1932, 5, No. 3, P. 394).

٢ – Foucaut M. Les mots et les choses, Paris, Gallimsrd, 1966, p.56.

٣ – تسجيل العمل الموسيقي أو المسرحي على اسطوانة أو فيلم لا يغير من الاعتراض شيئاً، إن وجه الاعتراض إلى التسجيل من حيث المبدأ. فباسم أي مطلق جرى عزف قطعة « Sacre du Printemps" » بقيادة الفرد سترافنسكي.

٤ – انظر. بداية فصل أل « Frauden tung" · » الذي يستند إلى «منهج التأويل» ويحدد موقع التحليل النفسي بالنسبة إلى الطرائق القديمة أو الشعبية في تأويل الأكاذيب.

(G.W. II — III, pp. sq. Trad. Paris, PUF, 1967, p.p.90 sq)

٥ – لم يصمد أي واحد من المحللين لهذا النوع من التأويل، ومنهم فرويد نفسه بالطبع. وفي فترة الحماس للاكتشاف التحليلي النفسي الوليد، ومن عجب لرؤية تقاطع تأويلات العلاج التحليلي النفسي للافراد مع تأويلات تحليل الأساطير والفولكلور، فان فرويد أعطى سلطة وقواماً لنظرية في الرمزية، تريد العثور على لغة لا واعية كلّية للرموز غير المدموغة بتاريخ الفرد ولا حتى بخصائص هذه الحضارة او تلك. وقد مضى في هذا التأويل، المدعو بالتأويل «الرمزي» الى حدّ رأى فيه منهجاً آخر موازياً لذلك المنهج الذي يمرّ في العمل العلاجي المتعلق ب «التداعيات» الفردية.

٦ – انظر لابلانش و لوكلير: "L.inconscient une étude psychanalytique". (Les temps modernes, juillet, 1961).

وانظر على الأخصّ س. لوكلير في: 'reves à La Licorne'

٧ – Constructions dans l'analyse". G.W., XVI, p.47. —

٨ – 'Construction à l'histoire du mouvement psychanalytique" G.W., X, p 108. —

٩ – سوف تتابع المناقشة المتعلقة بمؤلّف ب– ريكور: "De l'interprétation essai sur Freud" —

في: م. تور: "De l'interprétation ou la machine heurmeneutique". —

و ب. ريكور: (Le temps modernes, No. 237-8 (février et mars, 1966) —

— Une interprétation philosophique Freud". La NEF, No. 31, (juillet - octobre, 1967)

١٠ – هل من اللازم أن يحتل التخويف بواسطة بعض «المحللين»، والابتزاز بالتجربة اللاتواصلية، في «الحقل» وفي «أرض الصيد» المحفوظة للعلاج، موضع الصدارة. بحيث يتوجب على الفيلسوف، الناسي لنهجة الاسمى (انني بشر: ولا شيء من الأمور البشرية غريب عني.) ان يتشجع، في البدء، على المواجهة متذكراً بأن فرويد، في خاتمة المطاف «هو الذي جاء إلى حقلنا» (وبأنه جعل نفسه انساناً، وسكن بيننا).

١١ – Freud S., 1912, "Totem et tabou", G.W. IX, p.117. —

١٢ – La NEF, No. 31 (juillet - octobre, 1967), p.112. —

١٣ – In La NEF وهو من المصطلحات التي تزخرف تاريخ ست عملتهم. ويجري الحديث منذ عام ١٩٦٧ عن «بنية للاستقبال» بالنسبة ليتامى المستقبل في ال U.N.R. . لكن فرويد لم يبن بـ «صلابة» مما يحمل على الاعتقاد بضرورة تقديم مركز «أو مراكز» للضيافة مصنوعة مسبقاً لعدد من الفرويديين التعساء الضالين المرتدين.

١٤ – In la NEF. p.124 —

١٥ – Freud S. "L'interprétation du rêve". G.W., II — III, 625. —

١٦ – الاستناد إلى هيجل، في سبيل إلقاء الضوء على «الجدلية اللاهوتية» التي تسمح بـ «استعادة» للفرويدية، يظلّ بعيدا عن الحفاظ على القصد نفسه. وإن أفضل تحاليل هيجل وأكثرها اقناعاً، هي تلك التي تفرض فيها «الصورة» الجديدة للتأويل نفسها، في اقامة مشبوبة العاطفة. متنبهة وعنيدة في اتصالها مع حرفية الصورة السابقة. وبهذا المظهر «المبتذل» في العمل في «القراءة»، لم يمض هيجل دون أن يجسد مسبقاً التأويل «المخفّض» عند فرويد.

١٧ – Freud S., 1911. "L'intérêt de la psychanalyse" —

١٨ – انظر المحاولة التي سبقت لنا في كتابنا حول:

— "Hoiderlin et la question du père" Paris, P.U.F. 1961

١٩ – J. Laplanche et J.B. Pontalis: vocabulaire de la psychanalyse, Paris, P.U.F., 1967. —

٢٠ – Ch. P. Ricoeur. la N.E.F., p.115. —

٢١ – Les Temps Modernes, No. 246, novembre, 1966. —